المبحث الثالث: رحمة الله بالناس وبالمؤمنين خاصة

رحمة الله بالمؤمنين وبالناس جميعا، نلمسها من خلال هذه الآيات البينات التي سيتم عرضها، والتي توضح مدى سعة رحمته سبحانه وتعالى، فمن رحمة الله بالمؤمنين أنه لم يضيع إيمانهم وأجرهم، بعد أن حولت القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وكذلك رحمة الله بالكافرين الذين تابوا وكفوا عن قتال المؤمنين، وهي في الحقيقة ابتلاء لهم، أو بكف المؤمنين عن قتالهم، إذ لم يكلفهم مشقة مقاتلتهم، وبهذا تكون الآية منسوخة بآية السيف، كذلك المغفرة والرحمة، لمن جاهد في سبيل الله تعالى، ومن رحمته سبحانه أن نهى المؤمنين عن أكل الأموال بينهم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراض منهم، وهذا ليرحمهم من المقتلة الكبرى، هذا لأن الله رحيم بأهل طاعته، فالعصمة من الضلال من رحمة الله بالمؤمنين، كذلك رحمة الله بالمهاجر الذي مات قبل وصوله إلى مبتغاه.

ومن رحمته سبحانه بعباده، أنه لم يعجل لهم العقوبة، حلمًا ورحمة واسعة منه، فلا يطيق الكافرون أن تنزع منهم رحمة الله في الدنيا، ولا يصبرون على ابتلائه فيها، وهو أيسر من عذاب الآخرة، كذلك تدرك رحمة الله الذين اهتدوا إلى الحق، ولأن الله كتب على نفسه الرحمة، ومن رحمته سبحانه بالعباد، أن خلق لهم الأنعام التي تحمل أثقالهم، وتحملهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلى بشق الأنفس، كذلك عدم تعجيل العقوبة من الله، حين يفرط الناس بالنعم، فهو سبحانه رؤوف رحيم بهم، ومن رحمته أن وفق المؤمنين للإيمان، ومن رحمة الله تعالى بعباده، أنه لم يملكهم خزائن رحمته، ولو ملكهم بعضهم لبخلوا خشية الإنفاق، ويتكرر فضل الله ورحمته بعدم المعاجلة بالعقوبة في الآيات بين السور الكريمة، ليؤكد ويلفت العقول والأنظار لهذه النعمة والرحمة الكبرى، وكذلك نلاحظ أن الهداية من رحمة الله على عباده، كل هذا تحدثت عنه الآيات التي سنعرضها في هذا المبحث بإذن الله تعالى.

ولأن الله تعالى رحيم بأوليائه وهم المؤمنون، فقد كرر هذا المبدأ ليظل راسخا في ضمير المؤمنين، فمن رحمته بهم التوبة والغفران على ما فَرَط منهم، ومجازاتهم على طاعتهم، كذلك يقرر الله سبحانه وتعالى بأن الرزق والمطر، أو الصحة أو غيرها رحمة مبسوطة منه

عز وجل، وأن النبوة رحمة وعطية يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، وحين يعـــرض القرآن هذه الرحمات، ينهى عن القنوط من رحمته، وختاما يوضح سبحانه بأن كف أيدي المؤمنين، ومنع التعذيب رحمة، ليَدخل في الإسلام من رغب فيه، ومن رحمته بالمؤمنين أن أكمل مودتهم، فسبحانه ما أوسع رحمته.

1 ـــ من مظاهر رحمة الله بالمؤمنين:

أ ـــ من رحمة الله بالمؤمنين أن لا يضيع أجرهم، وأمدّهم بالعون على اجتياز الامتحان:

كانت رحمة الله بالمؤمنين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة جلية، حيث لم يضيع أجورهم بعد التحويل، وهو ردا على مزاعم يهود، الذين شككوا في قبول صلاة المؤمنين قبل تحويل القبلة إلى البيت الحرام:

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـــونَ الرَّسُـــولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِـــبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]

فلما حولت القبلة قالت اليهود: فكيف بمن مات منكم وهو يصلي على القبلة الأولى؟! لقد مات على الضلالة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾، و ماكان الله ليضيع صلاتكم التي صليتم، و تصديقكم بالقبلة الأولى[2]، قال السعدي: أي ما ينبغي لـــه ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن منّ الله عليهم بالإسلام والإيمان،بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أي شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانا زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها[3].

---

1 ـ البقرة (143).

2 ـ انظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن، علي بن أحمد الواحدي، 136/1، دار القلم ـ دمشق، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط1، 1415هـ/ 1995م.

3 ـ انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 71/1.

وقال الرازي: فذكر الله تعالى الرأفة أولا بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم، ويخفف المحن عنهم، ثم ذكر الرحمة لتكون أعمّ وأشمل، ولا تختص رحمته بذلك النوع، بل هو رحيم من حيث أنه دافع للمضار التي هي الرأفة، وجالب للمنافع معا[1]، وقال البيضاوي: فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم[2].

وفي تحويل القبلة ابتلاء وامتحان، ففي اجتياز الابتلاء فضل ورحمة من الله لأنه أمدهم بالعون على ذلك الاجتياز، قال سيد قطب: والله – سبحانه – يعلم كل ما يكون قبل أن يكون، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس، حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، فهو – لرحمته بهم – لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم.

وقال سيد: ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية، والتجرد من كل سمة وكل شعار لـــه بالنفس علقة، أمر شاق، ومحاولة عسيرة، إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به ويهديه إليه.

ثم قال: إنه يعرف طاقتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقتهم؛ وإنه يهدي المـــؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق منهم النية، وتصح العزيمـــة، وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته، فاجتياز البلاء فضل رحمته، إن الله بالناس لرؤوف رحيم، بهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضى والثقـــة واليقين[3].

ب ـــ النهي عن أكل الأموال بالباطل ليرحم الله عباده المؤمنين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [4] .

يخاطب الله عز وجل المؤمنين وينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل، بمـــا لم تبحـــه الشريعة من نحو السرقة والخيانة، و الغصب والقمار، وعقود الربا، إلا أن تكون التجـــارة تجارة، تجارة صادرة عن تراض، بالعقد أو بالتعاطي، ولكن كون تجارة عن تـــراض غـــير

1 ـ التفسير الكبير، الرازي، 99/4.
2 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 419/1.
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 132/1- 133.
4 ـ النساء (29).

منهي عنها، وخص التجارة بالذكر لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها، ولا تقتلوا أنفسكم من كان من جنسكم من المؤمنين، لأن المؤمنين كنفس واحدة، أو ولا يقتل الرجل نفسه، كما يفعله بعض الجهلة، أو معنى القتل أكل الأموال بالباطل، فظالم غيره كمهلك نفسه، أو لا تتبعوا أهواءها فتقتلوها، أو تركبوا ما يوجب القتل، (إن الله كان بكم رحيما) ولرحمته بكم نبهكم على ما فيه صيانة أموالكم وبقاء أبدانكم[1].

وقال الطبري في قوله تعالى: (إن الله كان بكم رحيما) فإنه يعني أن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيما بخلقه، ومن رحمته بكم كف بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون، بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضا، قتلا وسلبا وغصبا[2].

وقال سيد قطب: وهذا التعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الأموال بالباطل؛ فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة؛ إنها عملية قتل.. يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها، حين ينهاهم عنها!

وإنها لكذلك، فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة بالربا، والغش، والقمار، والاحتكار، والتدليس، والاختلاس، والاحتيال، والرشوة، والسرقة، وبيع ما ليس يباع كالعرض، والذمة، والضمير، والخلق، والدين! – مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء – ما تروج هذه الوسائل في جماعة، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها، وتتردى في هاوية الدمار! والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة، المردية للنفوس؛ وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم؛ ومن تدارك ضعفهم الإنساني، الذي يرديهم حين يتخلون عن توجيه الله، إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات![3]

1 ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 1/ 218.
2 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 5 / 35.
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 2 /640.

ت ـــ الله رحيم بالمؤمنين حيث أباح لهم الغنائم:

عاتب الله تعالى رسوله والمؤمنون يوم بدر لمّا أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، من قبل أن يترل إليهم في ذلك شيء، قال السيوطي: وكان الله تعالى قد كتب في أم الكتاب المغانم والأسارى حلالا لمحمد ﷺ وأمته، ولم يكن أحله لأمة قبلهم، وأخذوا المغانم وأسروا الأسارى قبل أن يترل إليهم في ذلك[1]، ثم بعد هذه المعاتبة جاء الوحي من الله بأن أباح لهم الغنائم، رحمة ولطفا بهذه الأمة، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

أي كلوا يامعشر المجاهدين، مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب، حال كونه حلالا أي محللاً لكم، (طيبا) من أطيب المكاسب، لأنه ثمرة جهادكم، وفي الحديث عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «جُعِل رِزقي تحت ظِلِّ رمحي، وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على مَن خالفَ أمري»[3].

وقال التيسير: وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة أن أحل لها الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، واتقوا الله في جميع أموركم ولازموها شكرا لنعم الله عليكم، إن الله غفور، يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئا جميع المعاصي، رحيم بكم حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالا طيبا[4].

ث ـــ من رحمة الله بالمؤمنين أن يتوب ويغفر لهم ما فرط منهم ويجازيهم بالفوز على طاعتهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[5]

1 - الدر المنثور،السيوطي، 4/ 109.
2 - الأنفال (69).
3 - صحيح البخاري، البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما قيل في الرماح، برقم:84.
4 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 327/1.
5 - الأحزاب (72 - 73).

قال في أنوار التنزيل: وذكر التوبة في الوعد، إشعار بأنهم كونه ظلوما جهولا بجبلته، لا يخليهم عما فرط منهم (وكان الله غفورا رحيما) حيث تاب عن فرطاتهم، وأثاب بالفوز على طاعاتهم[1]، فهو سبحانه مبالغا في المغفرة والرحمة.

ج ـــ من رحمة الله بالمؤمنين أنه اقتصر على نصحهم وتقريعهم و لم يعجل لهم العقاب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

ذم الله الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسولﷺ فقال : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) أي يدعونك من وراء منازل أزواجك الطاهرات، (أكثرهم لا يعقلون) أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير، قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه (عيينة بن حصين) و(الأقرع بن حابس) رضي الله عنهما، وفد على رسول الله ﷺ في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد أخرج إلينا[3].

(وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ) أي ولو أن هؤلاء المنادين، لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم، وصبروا حتى تخرج إليهم، لكان ذلك الصبر خيرا لهم، وأفضل عند الله وعند الناس، لِمَا فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة، (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين، فهو (بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا)[4]، حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب، التاركين تعظيم الرسول ﷺ[5]، و لم يُنْزل العقاب بهم.

ح ـــ من رحمة الله بالمؤمنين أن أكمل مودتهم :

قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[6]

1 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 4 / 379.
2 ـ الحجرات (4 -5).
3 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 3 / 367.
4 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، 8/ 118.
5 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، 5 /214.
6 ـ الممتحنة (7).

أي عسى الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم، من أقاربكم المشركين محبة ومودة، محبة بعد البغضاء، وإلفة بعد الشحناء، قال في التسهيل: لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودّة، وعلم الله صدقهم آنسهم بهذه الآية، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة أي محبة، وهذه المودة كملت في فتح مكة، فإنه أسلم حينئذ سائر قريش[1]، وقال الرازي: و (عسى) وعد من الله تعالى و(بين الذين عاديتم منهم مودة) يريد نفرا من قريش آمنوا بعد فتح مكة منهم أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحرث، والحرث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، والله تعالى قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة والله غفور رحيم بهم، إذا تابوا وأسلموا ورجعوا إلى حضرة الله تعالى[2]، يعني مشركوا قريش، فالله مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب من عباده، و المؤمنين تشملهم المغفرة والرحمة كذلك، قال في أنوار التنزيل:(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما فرط منكم ـــ أيها المؤمنون ـــ في موالاتهم من قبل، ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم[3].

خ ـــ الله يرحم المؤمنات إذا وفينا بما عاهدن الله عليه:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4]

أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة، فبايعهن على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جل وعلا، ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن، فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهن من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب، قال أبو السعود: (زيادة على ما في ضمن المبايعة، فإنها عبارة عن ضمان الثواب من قبله عليه الصلاة والسلام، بمقابله

1 ـ التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، 4/ 114، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط4، 1403هـ/1983م.
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 29/ 262.
3 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 5 /328.
4 ـ الممتحنة (12).

الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن (إن الله غفور رحيم) أي مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه)[1].

د ـــ الله الغالب على أعدائه الرحيم بأوليائه:

قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ 2 فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ 3 فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2]

قال في مدارك التنزيل: ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم، (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من كفار مكة، وقيل نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم، (ينصر من يشاء وهو العزيز) الغالب على أعدائه (الرحيم) العاطف على أوليائه[3].

وقال الرازي: (وهو العزيز الرحيم)، ذكر من أسمائه هذين الاسمين، لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه، فذلك لعزته وعدم افتقاره، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه، أو نقول: إنْ نصَر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو، ورحمته على المحب وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب، ورحمته في الآخرة واصلة إليه، ثم قال تعالى: (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعني: سيغلبون، وعدهم الله وعدا، ووعد الله لا خلف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون وعده، وأنه لا خلف في وعده[4].

2 ـــ رحمة الله الواسعة وحلمه بعباده:

أ ـــ غنى الله عن المخلوقين ورحمته بهم:

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾[5]

1 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 8 / 241.
2 ـ الروم (2 -5).
3 ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، أبو البركات، 3 / 267، دار الكتاب العربي ـ بيروت، سنة الطبع: 1408هـ/1988م.
4 ـ التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، 86/25، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 1421هـ/2001م.
5 ـ الأنعام (133).

قال سيد قطب: (على أن الله – سبحانه – إنما يرسل رسله رحمة بالعباد؛ فهو غني عنهم؛ وعن إيمانهم به، وعبادتهم له، وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم في الدنيا والآخرة، كذلك تتجلى رحمته في الإبقاء على الجيل العاصي الظالم المشرك، وهو القادر على أن يهلكه، وينشئ جيلا آخر يستخلفه:

فلا ينس الناس أنهم باقون برحمة الله؛ وأن بقاءهم معلق بمشيئة الله؛ وأن ما في أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه، فليس هو سلطاناً أصيلاً، ولا وجودا مختارا، فما لأحد في نشأته ووجوده من يد؛ وما لأحدٍ فيما أعطيه من السلطان من قدرة، وذهابهم واستخلافِ غيرهم هينٌ على الله، كما أنه أنشأهم من ذرية جيل غبر، واستُخلفوا هم من بعده بقدَر من الله)[1].

ب ـــ من رحمة الله الواسعة وحلمه أن لا يعجل العقوبة على الناس:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [2]

(فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا، وبمن كان مؤمنا من عباده، وبغيرهم من خلقه، فرحمته – سبحانه – تسع المحسن والمسيء؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب؛ حلمًا منه ورحمة، فإن بعضهم قد يثوب إلى الله.. ولكن بأسه شديد، لا يرده عن المجرمين إلا حلمه، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم، وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس، والله الذي خلق قلوب البشر؛ يخاطبها بهذا وذاك؛ لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب)[3].

وقال القرطبي: و من سعة رحمته حَلُم عنكم، فلم يعاقبكم في الدنيا، ثم أخبر بما أعده لهم في الآخرة من العذاب فقال: (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) وقيل: المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله في الدنيا[4].

ت ـــ رحمة الله تدرك الذين اهتدوا إلى الحق:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [1]

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 3 / 1210.
2 ـ الأنعام (147).
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 3 / 1226.
4 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 7 / 128.

قال في الكشاف: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة، أي ملة واحدة، وهي ملة الإسلام، كقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [2]، وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلفوا، فلذلك قال: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) إلا ناسا هداهم الله، ولطف بهم، فاتفقوا على دين الحق، غير مختلفين فيه، ولذلك من التمكن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف، خلقهم ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره، (وتمت كلمت ربك) وهي قوله للملائكة: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [3]، لعلمه بكثرة من يختار الباطل [4].

قال سفيان[5] في قوله: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) قال: منهم اليهود والنصارى، (إلا من رحم ربك) قال: جعلها استثناء للمسلم (ولذلك خلقهم) قال: للرحمة[6].

هكذا سنة الله في اختلاف الناس، إلا ناسا هداهم الله فلطف بهم، ولوشاء الله لخلقهم على نسق واحد، لا يتفاوتون ولا تنوع بينهم، وهذه ليست طبيعة هذا الإنسان، ولكن هي حرية التوجه، وحرية الاختيار ليحمل كل إنسان تبعة ذلك، يقول سيد قطب:

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته، وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه، وأن يختار هو طريقه، ويحمل تبعة الاختيار، ويجازي على اختياره للهدى أو

---

1 - هود (118 - 119).
2 - الأنبياء (92).
3 - هود(119).
4 - انظر تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، 2/ 413، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1، 1417هـ/ 1997م.
5 - **سفيان الثوري:** هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من ولد ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكان يقال: أنه في بني ثور ثلاثون رجلا ليس منهم رجل دون الربيع بن خثيم وهم بالكوفة، وليس بالبصرة منهم أحد، وكان يلقب بأمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة عام 97هـ وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة عام 144هـ، وقيل سنة فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى، وانتقل إلى البصرة، ومات بالبصرة مستترا من المهدي، ودفن عشاء وذلك في سنة إحدى وستين ومائة هجرية، له من الكتب الجامع الكبير، والجامع الصغير، كلاهما في الحديث الشريف، وكتاب الفرائض، كان آية في الحفظ، من كلامه: ما حفظت شيئا فنسيته، ولابن الجوزي كتاب في مناقبه، انظر (الفهرست لابن النديم، ص309، والأعلام للزركلي، 104/3).
6 - تفسير الثوري، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله، 136/1،دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.

للضلال.. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته، فالذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء، في أنه تصرف حسب سنة الله في خلقه، ووفق مشيئته، في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقى جزاء منهجه الذي اختار.

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين، وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة – إلا الذين أدركتهم رحمة الله – الذين اهتدوا إلى الحق – والحق لا يتعدد – فاتفقوا عليه، وهذا لا ينفي أنهم مختلفون مع أهل الضلال[1].

ث ـــ من رحمة الله بالناس الهداية وإثابة الطائعين:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[2]

قال في تفسير السمرقندي: ثم قال عز وجل يعذب من يشاء يعني يخذل من يشاء ولا يهدي من لم يكن أهلا لذلك، ويرحم من يشاء فيهديه إن كان أهلا كذلك، وإليه تقلبون يعني ترجعون إليه في الآخرة[3].

وقال السعدي في قوله تعالى: (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أي هو المنفرد بالحكم الجزائي وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم، (وإليه تقلبون) أي ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكتسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا عن أسباب عذابه وهي المعاصي[4].

ـــ ومن رحمة الله بالناس التوفيق للهداية والإنجاء من النار:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً) (53)رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 1933.
2 ـ العنكبوت (19 -20 - 21).
3 ـ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، السمرقندي، 629/2، وقول النسفي قريب من هذا حيث قال: (إن الله على كل شيء قدير) قادر يعذب من يشاء بالخذلان (ويرحم من يشاء) بالهداية أو بالحرص والقناعة، أو بسوء الخلق وحسنه، أو الإعراض عن الله أو بالإقبال عليه، أو بمتابعة البدع أوبملازمة السنة، (وإليه تقبلون) تردون وترجعون، انظر (مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 3 / 255).
4 ـ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 628/1- 629.

عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[1]،قال في تفسير السمعاني: (أو يرحمكم بالتوفيق والهداية، ويعذبكم بالإضلال، وقيل يرحمكم بالإنجاء من النار)[2]،وقال في الجلالين: إن يشأ يرحمكم بالتوبة والإيمان، أو إن يشأ تعذيبكم يعذبكم بالموت على الكفر، وما أرسلناك عليهم وكيلا، فتجبرهم على الإيمان، وهذا قبل الأمر بالقتال[3]، (أو تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم)[4].

(فالعلم المطلق لله، وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم، وعند البلاغ تنتهي وظيفة الرسول) [5].

ج ـــ الله غفور رحيم لمن تاب :

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[6]

عن أبي هريرة يقول : مَرَّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَى رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَضْحَكُونَ، فقال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ لَكَ: لِمَ تُقَنِّطُ عِبَادِي؟ قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا»[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار)[8].

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وأن عذابي هو العذاب الأليم..

(ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب، جريا على الأصل الذي ارتضت مشيئته، فقد كتب على نفسه الرحمة، وإنما يذكر العذاب وحده أحيانا، أو يقدم في النص لحكمة خاصة في السياق تقتضي إفراده بالذكر أو تقديمه)[9].

---

1 ـ الإسراء (54).
2 ـ تفسير السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، 3/ 349، دار الوطن ـ الرياض، السعودية، تحقيق: ياسر بن ابراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط1، 1418هـ/ 1997م.
3 ـ تفسير الجلالين، 1/ 371.
4 ـ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 1/ 460.
5 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 /2234
6 ـ الحجر (49).
7 ـ صحيح ابن حيان، ابن حبان، 1/ 96، دار الفكر ـ بيروت.
8 ـ صحيح البخاري، البخاري، برقم: 6322، باب ماجاء في الرقاق.
9 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 2147.

ح ـــ من رحمة الله بالعباد أن يغفر لمن دخل الإسلام من المشركين:

أمر الله تعالى المؤمنين بقتال المشركين الذين يقاتلنهم، ثم بين حرمة الحرم المكي، و بيّن أن (شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام[1]،(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعا للصائل)[2]، فمن رحمة الله أنهم إذا تركوا قتال المسلمين بدخولهم الاسلام غفر لهم ما قد سلف،قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين،وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ،فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]

قال البغوي: فإن انتهوا عن القتال والكفر فإن الله غفور رحيم أي غفور لما سلف رحيم بالعباد[4].

خ ـــ من فضل الله ورحمته على الناس:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (19) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ(20) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5]

يعني يظهر الزنا ويفشو ويقال: يحبون ما شاع لعائشة من الثناء السيء في الذين آمنوا يعني عائشة وصفوان رضي الله عنهما، لهم عذاب أليم في الدنيا الحد، والآخرة النار، إن لم يتوبوا والله يعلم أنهما لم يزنيا، وأنتم لا تعلمون ذلك منهما، ثم قال عز وجل: (ولولا

1 ـ معالم التنزيل، البغوي، 1/ 162.
2 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 1/ 228.
3 ـ البقرة190 ـ 192.
4 ـ معالم التنزيل، البغوي، 1/ 162.
5 ـ النور (19 ـ 21).

فضل الله عليكم ورحمته) لولا منّ الله عليكم ونعمته، لعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة وصفوان، وأن الله رؤوف رحيم حيث لم يعجِّل بالعقوبة[1].

وقال ابن كثير: ولولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رءوف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه[2].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) بإشاعة الفاحشة، (وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) بيان لعلة النهي عن اتباعه و(الفحشاء) ما أفرط قبحه و(المنكر) ما أنكره الشرع، ولولا فضل الله عليكم ورحمته بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها، (ما زكى) ما طهر من دنسها (منكم من أحد أبدا) آخر الدهر (ولكن الله يزكي من يشاء) بحمله على التوبة وقبولها (والله سميع) لمقالهم، (عليم) بنياتهم[3].

والآية على العموم عند بعض المفسرين قالوا أخبر الله أنه: لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد[4] يطهر من يشاء من الإثم والذنب بالرحمة والمغفرة[5].

د ـــ رحمة الله ومغفرته أقرب وأكبر بعباده:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[6]، أي بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم، ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا، إن شاء ذلك فيمنعهم من الإيمان، أو يتوب عليهم إن أراد، وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي ﷺ عن إيمانهم، وآمن بعد ذلك ناس منهم، وقوله: (وكان الله غفورا) حيث ستر ذنوبهم، و رحيما حيث رحمهم ورزقهم الإيمان، فيكون هذا فيمن آمن بعده، أو نقول ويعذب المنافقين مع أنه كان غفورا رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم، ولو كان دون ذلك لغفر لهم [7].

---

1 ـ بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، 2/ 503ـ 504، دار الفكرـ بيروت، تحقيق: محمود مطرجي.
2 ـ تفسير القرآن العظيم، اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي،3/ 276، دار الفكرـ بيروت، 1401هـ / 1981م.
3 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 4 / 179
4 ـ معالم التنزيل، البغوي، 3 / 333.
5 ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، 2 / 259.
6 ـ الأحزاب (24).
7ـ انظر التفسير الكبير، الرازي، 176/25.

ذ ـــ النهي عن القنوط من المغفرة والرحمة:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1] قال في التيسير: قل يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبرا للعباد عن ربهم (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب والسعي في مساخط علام الغيوب، (لا تقنطوا من رحمة الله) أي لا تيأسوا منها فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعا، من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار، (إنه هو الغفور الرحيم) أي وصفه المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته، ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلموا إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم [2].

ر ـــ الله كف أيدي المؤمنين ومنع التعذيب رحمة منه، ليدخل في الاسلام من رغب فيه:

قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[3] ، أي همُ الكفار دون غيرهم، وهم كفار مكة، صدوكم ومنعوكم من أن تطوفوا في المسجد الحرام، وأنتم أحق به، أنتم أهله، وصدوا الهدي وهو محبوسا أن يصل إلى منحره إلى المحل المعهود وهو منى، وهذا بسبب بغيهم وعنادهم، وكان الهدي الذي

1 - الزمر (53).
2 - تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 727/1.
3 - الفتح (25).

ساقه رسول الله ﷺ سبعين بدنة، ولو لا أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم، ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة، لما كفّ أيديكم عنهم، وقوله: (لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)، قال ابن كثير: (يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم ـــ من مشركي مكة ـــ إلى الإسلام)[1]، رحمة منه سبحانه وتعالى، وقال النسفي: كأنه قال كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته، أي في توفيقه، لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيهم، أو **ليدخل في الاسلام** من رغب فيه من مشركيهم، و لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين، و لو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف منهم من أهل مكة عذابا أليما، ولعذبناهم في ذلك الوقت [2].

ـــ من رحمة الله بالعباد أن جعل بين الزوجين المودة والرحمة:

وتنال الرحمة كذلك بالزواج، إذ الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، قال السعدي: ومن آياته الدالة على رحمته، وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن، (لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة، بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها، فلا تجد بين اثنين في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله وينتقلون من شيء إلى شيء[4].

3ـــ من رحمة الله أن خلق لهم الأنعام وأمدهم بالنعم ولم يعجل لهم النقم:

من آثار رحمة الله على خلقه النعم التي لا تحصى ولا تعد، قال السعدي: فالنعم كلها أثر من آثار رحمته[5].

---

1 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 4/ 194.
2 ـ انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، بالتصرف، 4 / 157 ـ 158.
3 ـ الروم (21).
4 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 639/1.
5 ـ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 39/1.

أ ـــ رحمة الله بخلقه حين خلق لهم الأنعام لينتفعوا بها:

قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]،قال الزمخشري: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد، قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم، إلا بجهد ومشقة[2]، فضلا أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم[3]، (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)، (حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم بها، وتيسيرالأمر عليكم)[4].

ب ـــ من رحمة الله بالناس حين تفريطهم بالنعم أن لا يعجل لهم العقوبة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]

نعم الله لا تحصى ولا تعد، وإن بدأتم بتعدادها (لا تضبطوا عددها، فضلا أن يطيقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم وإلزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة، تنبيها على أن وراء ما عُدد نعما لا تنحصر، وأن حق عبادته تعالى غير مقدور، (إن الله لغفور) حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها، (رحيم) لا يقطعها لتفريطكم فيه، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها)[6].

يقول سيد قطب: ولقد استعرض الله ألوانا من النعمة، فهو يعقب عليها: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فضلا على أن تشكروها، وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها، وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام، إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال، إنما يسعه غفران الله للتقصير، ورحمته بالإنسان الضعيف إن الله لغفور رحيم[7].

ت ـــ الله رؤوف رحيم بعباده حيث لم يعجل لهم العقوبة:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ 45أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[8]

---

1 - النحل (7).
2 - قال الزمخشري: وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد، الكشاف،556/2.
3 - تفسير الكشاف، الزمخشري، 2/ 556.
4 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 3 / 386 - 387.
5 - النحل (18).
6 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي 3 / 391.
7 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 4 / 3164.
8 - النحل (45 -47).

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) أي المنكرات السيئات، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء أو الذين مكروا برسول الله ﷺ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان، (أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ) كما خسف بقارون (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) بغتة من جانب السماء، كما فعل بقوم لوط، (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ) أي متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم، (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) على مخافة بأن يهلك قوما قبلهم، فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تنقصته[1]، (فإن ربكم لرؤوف رحيم) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة[2].

ويقول سيد قطب: أو يأخذهم وهم يتقلبون في البلاد، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة، فما هم بمعجزين الله، ولا يبعد عليه مكانهم في حل أو ترحال، أو يأخذهم على تخوف،فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم، فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون، قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون؟ ولكن الله رؤوف رحيم[3].

وكما رأينا ما حدث اليوم بما يعرف بـ(طوفان آسيا)، بسبب هزة أرضية في المحيط الهندي، الذي أخذ أكثر من مائتي ألف غريق، عندما تجاوزوا حدود الله، وأكثروا الفساد على الشواطيء بما لا يرضي الله ورسوله، ومكروا السيئات، وفتحوا بلادهم للسياح المفسدين في الأرض، من بلاد أوربا وأميركا، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فكنس سواحلهم وطهرها، وأخذ الطالح والصالح، فالله رؤوف رحيم بعباده، حين يذكرهم بهذه الآية من سورة النحل، رحمة بهم لعلهم يرجعون، وفي الحديث: وقال ابن أبي الدنيا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه دخل على عائشة رضي الله عنها ورجل معه، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا استباحوا الزنى وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف، غار الله في سمائه، فقال: تزلزلي بهم فإن تابوا وفزعوا وإلا

---

1 ـ التخوف: التنقص، روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال شاعرنا أبو كبير وهو زهير بن أبي سلمة، يصف ناقته: تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن
فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسيركتابكم ومعاني كلامكم، انظر أنوار التنزيل، البيضاوي، 401/3.

2 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 3 / 400 - 401.

3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 2 / 2173.

هدمتها عليهم، قال: قلت: يا أم المؤمنين أعذاب لهم؟ قالت: بل موعظة **ورحمة** وبركة للمؤمنين، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين، قال أنس: ما سمعت حديثا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحا مني بهذا الحديث[1].

ث ـــ من رحمة الله بالناس أنه لم يملكهم خزائن رحمته من الرزق:

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾[2]، قل لهم لو أنتم تملكون (خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي) من الرزق والمطر، (إِذاً لأَمْسَكْتُمْ) لبخلتم خشية الإنفاق خوف نفاذها بالإنفاق فتقتروا (وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً) بخيلا[3].

هذا كما قال سيد قطب: (كرم الله في مقابل بخل الإنسان، على أن أولئك الذين يقترحون على الرسول ﷺ تلك المقترحات المتعنتة، من بيوت الزخرف، وجنات النخيل والأعناب، والينابيع المتفجرة.. بخلاء أشحاء، حتى لو أن رحمة الله قد وكلت إليهم خزائنها، لأمسكوا وبخلوا خوفا من نفادها، ورحمة الله لا تنفد ولا تغيض:

وهي صورة بالغة للشح، فإن رحمة الله وسعت كل شيء، ولا يخشى نفادها ولا نقصها، ولكن نفوسهم الشحيحة تمنع هذه الرحمة، وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها)![4] فمن رحمته بهم أنهم لم يملكهم الله خزائن الرزق.

4 ـــ حقيقة كون الرحمة بيد الله وحده، والتحول الشامل فيما لو استقرت هذه الحقيقة في قلوب الناس:

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[5]، هذا سيد قطب – رحمه الله – يعطينا صورة شاملة عن حقيقة كون الرحمة بيد الله، بمفهومها الواسع، ننقلها كما هي، يقول سيد قطب: في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى، وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً.

1 ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، 1/ 264.
2 ـ الإسراء (100).
3 ـ تفسير الجلالين، 1 / 371.
4 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 4/ 2252.
5 ـ فاطر(2).

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض وتصله بقوة الله، وتيئسه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض وتصله برحمة الله، وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله، وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه؛ وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير، ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح، ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان.. يجدها في نفسه، وفي مشاعره؛ ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان، ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان، ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة – يمسك الله معها رحمته – حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة – تحفها رحمة الله – حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك – مع رحمة الله – فإذا هو مهاد، وينام على الحرير– وقد أمسكت عنه– فإذا هو شوك القتاد، ويعالج أعسر الأمور– برحمة الله – فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور– وقد تخلت رحمة الله – فإذا هي مشقة وعسر، ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك، ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك.. فلا عليك، فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء.. وهذا الباب وحده يغلق

وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع، وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!،هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق، ويضيق السكن، ويضيق العيش، وتخشن الحياة، ويشوك المضجع.. فلا عليك، فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة، وهذا الفيض يمسك، ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء، فلا جدوى، وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء!، المال والولد، والصحة والقوة، والجاه والسلطان، تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله، فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان.

يبسط الله الرزق – مع رحمته– فإذا هو متاع طيب ورخاء؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة، ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذرية – مع رحمته – فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله، ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء، وسهر بالليل وتعب بالنهار!، ويهب الله الصحة والقوة – مع رحمته – فإذا هي نعمة وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة، ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب!.

ويعطي الله السلطان والجاه – مع رحمته – فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر، ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار!.

والعلم الغزير، والعمر الطويل، والمقام الطيب، كلها تتغير وتتبدل من حال إلى حال... مع الإمساك ومع الإرسال.. وقليل من المعرفة يثمر وينفع، وقليل من العمر يبارك الله فيه، وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة . والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد، في كل أمر وفي كل وضع، وفي كل حال.. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال!.

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة، والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها، وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً، إنه لا ييـــأس مـــن روح الله إلا القـــوم الكافرون.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال، وجدها إبراهيم – عليـــه السلام – في النار، ووجدها يوسف – عليه السلام – في الجب كما وجدها في السجن، ووجدها يونس – عليه السلام – في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ووجدها موســـى – عليه السلام – في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثـــار.. ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها، ومـــن ثم فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد، ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة، إنما هي مشيئة الله، ما يفتح الله فلا ممسك، ومـــا يمسك الله فلا مرسل، والأمر مباشرة إلى الله.. وهو العزيز الحكيم.. يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك، ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك.

ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها.. وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعـــة وفي رجـــاء وفي ثقـــة وفي استسلام.

وما يمسك فلا مرسل لـــه من بعده.. فلا رجاء في أحد من خلقه، ولا خوف لأحد من خلقه، فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله.

أية طمأنينة ؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقـــره هذه الآية في الضمير؟!

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة؛ وتنشىء في الشعور قيماً لهذه الحيـــاة ثابتـــة؛ وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها، ذهبـــت أم جـــاءت،كـــبرت أم صغرت، جلت أم هانت، كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لـــصمد كـــالطود للأحـــداث والأشـــياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات، ولو تضافر عليها الإنس والجن، وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها، ولا يمسكونها حين يفتحها.. وهو العزيز الحكيم ..

ثم يقول سيد: وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر في صدر الإسلام، الفئة التي صنعت على عين الله بقرآنه هذا، لتكون أداة من أدوات القدرة ، تنشيء في الأرض ما شاء الله أن ينشيء من عقيدة وتصور ، وقـــيم ومـــوازين، ونظم وأوضاع، وتقر في الأرض ما شاء الله أن يقر من نماذج الحياة الواقعة التي تبدو لنـــا اليوم كالأساطير والأحلام، الفئة التي كانت قدراً من قدر الله يسلطه على من يـــشاء في الأرض فيمحو ويثبت في واقع الحياة والناس ما شاء الله من محو ومن إثبات، ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هذا القرآن، ولا مع المعاني الجميلة التي تصورها.. وكفى.. ولكنها كانت تتعامل مع الحقيقة التي تمثلها آيات القرآن، وتعيش في واقعها بها، ولها..

وما يزال هذا القرآن بين أيدي الناس، قادراً على أن ينشىء بآياته تلك أفراداً وفئات تمحو وتثبت في الأرض – بإذن الله – ما يشاء الله.. ذلك حين تستقر هـــذه الـــصور في القلوب، فتأخذها جداً، وتتمثلها حقاً، حقاً تحـــسه، كأنهـــا تلمـــسه بالأيـــدي وتـــراه بالأبصار[1].

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 5 / 2921 ـ 2924.